الدرس السادس من التعليق على كتاب الأمثال لابن القيم

الشيخ مشهور بن حسن آل سلمان

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد.

قال المؤلف: ((ومنها قوله تعالى: (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) شبه سبحانه الحياة الدنيا في أنها تتزين في عين الناظر فتروقه بزينتها وتعجبه فيميل إليها ويهواها اغترارا منه بها حتى إذا ظن أنه مالك لها قادر عليها سلبها بغتة أحوج ما كان إليها وحيل بينه وبينها فشبهها بالأرض الذي ينزل الغيث عليها فتعشب ويحسن نباتها ويروق منظرها للناظر فيغتر به ويظن أنه قادر عليها مالك لها فيأتيها أمر الله فتدرك نباتها الآفة بغتة فتصبح كأن لم تكن قبل فيخيب ظنه وتصبح يداه صفرا منهما فهكذا حال الدنيا والواثق بها سواء، وهذا من أبلغ التشبيه والقياس.

فلما كانت الدنيا عرضة لهذه الآفات والجنة سليمة منها قال تعالى تعالى: (والله يدعوا إِلَى دَارِ السَّلامِ) فسماها هنا دار السلام لسلامتها من هذه الآفات التي ذكرها في الدنيا فعم بالدعوة إليها وخص بالهداية من شاء فذلك عدله وهذا فضله))

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك وأشهد أن مُحَمَّداً عبده ورسوله.

أما بعد.

فهذا مثل آخر ، وكثر استخدام القرآن الكريم لتشبيه الحياة الدنيا بالماء النازل من السماء ،

وهذا المثل صريح واضح وليس بكامن ، فيه مشبه ومشبه به والمشبه هو الحياة الدنيا والمشبه به الماء النازل من السماء، إذ مدار هذه الحياة الدنيا على الماء ، ولذا شبه الله تعالى فيما مضى القرآن الكريم بالماء ، فالماء فيه الحياة كما أن القرآن فيه الحياة ، وكذلك هذه الحياة الدنيا شبهت بالماء ، قال الله تعالى: ((وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً لنفتنهم فيه)) .، قال بعض أهل التفسير وهو الإمام القرطبي قال حيثما كان الماء كان المال وحيثما كان المال كانت الفتنة، وذكر هذه الآية " وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم غدقاً لنفتنهم فيه" .

فهذه الحياة أصل قيام الناس فيها إنما هو على الزراعة، ثم يترتب على الزراعة الصناعة ثم يترتب على الصناعة التجارة ، فالحياة متكاملة بين ثلاثة أشياء ومهن الناس كلها إنما هي تدور أولاً على الزراعة ثم الصناعة ثم التجارة.

ولذا قال بعض علماء هذا العصر وهو الشيخ الشعراوي، ومن بركة العلم عزو القول لقائله فأعزو القول لقائله من باب البركة، فبركة العلم أن يعزى القول إلى قائله ، قال ملخصاً هذه

النتيجة المترتبة على هذه الحركة قال كلمة جيدة نافعة بديعة قال: من لم يكن طعامه ليس من فأسه فقراره من غير رأسه.

فقراره من أين؟

فقراره من رأس غيره قراره لم يكن من رأسه ، لذا أصل القوة في الحياة نابعة من الزراعة، ثم بعد الزراعة الصناعة ثم بعد الصناعة التجارة، أما أن تجد صناعة أو أن تجد تجارة دون زراعة فهذا خلل وعلى هذا قائم النظام العالمي الجديد الذي لم يكن له وجود في تاريخ البشرية وهو قائم على القوة وعلى فرض ما يريد بالطريقة التي يريد في الوقت التي يريد بأي مظهر يسوغ له ويؤذن له أن يتكلم بالتغيير والتبديل .

المثل الذي معنا مثل واضح ومثل في ميدان العقيدة ، أمثلة القرآن الكريم هي ثمرة لازمة وحتم واجب لمسائل العقيدة ، أمثلة القرآن كلها ثمراً مترتبة على العقيدة تفهم هذه الثمرة من خلال أمثال القرآن ، المثل في الحياة الدنيا والزوج فيها نعم لكن هذا المثل لا يدركه إلا من كان صاحب عقيدة سديدة سوية يعرف الدنيا وتقلبها ولا يغتروا بها ويعدوا العدة لها.

هذا المثل مثل واضح ظاهر في سورة مكية سورة يونس ويونس ويوسف تجوز فيها ستة أوجه ، السين في يوسف والنون في يونس مثلثة، ومعنى أنها مثلثة تنصب وتكسر وترفع، يعني يصح أن تقول ويونس ويؤنس يونس ويونس ويونس بالهمزة ودونها يؤنِس ويؤنَس ويؤنُس ، ولذا قال أهل العلم في يوسف ويونس : تجوز فيها ستة أوجه مثلثة بالهمز ودونها ، عبارتهم هكذا

مختصرة قالوا يونس ويوسف قال مثلثاً بالهمزة ودونها وأنت تفهم طبعاً واضح طالب العلم يفهم، إذا قرأت كلام المفسرين الذين طولوا يفهمون ذلك.

مدار المثل على تفاهة هذه الحياة الدنيا، الدنيا تافهة لا تسوى شيئاً وسيأتينا هذا الكلام مفصلاً من منهجنا في شرح الأمثال نشرح أمثال ابن القيم بكلام ابن القيم سنقرأ نصين بإذن الله تعالى من كلام ابن القيم في هذا الباب ، فإيجاز المثل الدنيا كالنبتة وهذه النبتة ما تلبث أن نمت وترعرعت ثم انتهت حياتها وفات قطافها ودنا وداعها وهكذا بكل سهولة ويسر هذه الحياة الدنيا، فالسعيد من لم يغتر بها، والسعيد من يعلم أنها لا تدوم له ، وأنها متقلبة وما ينبغي أن يركن لها، لأنها لا يمكن لأحد أن يتمكن منها .

فهذا المثل تقريب لحال الحياة الدنيا ، مثل قصير يتناسب مع حال الدنيا ، وهذا المثل ضرب بسرعة زوال هذه الحياة، ولو أنك تأملت البنية البيانية لهذا المثل ووقفت طويلاً عند ألفاظ هذا المثل في القرآن لعلمت أن بنية هذا المثل البيانية وطريقة الأسلوب التي صيغ بها جاءت لإلقاء في روع الإنسان وذهنه أن هذه الدنيا لا تزول.

نتابع المثل الماء نازل بسرعة، وهذا الماء نازل بسرعة ممتزج، فاختلط به نبات الأرض ممتزج بنبات الأرض ، هذا نبات الأرض مباشرة يغدو هشيماً ، لو أنك تأملت ألفاظه وبنيته وأسلوبه البياني ما وجدت فيها متعة وزينة الحياة الدنيا مفصلة وإنما فيها مباشرة أنه الماء نزل ترعرع الزرع ثم أصبح هشيماً وهشيماً تذروه الرياح، تلعب به الرياح، فالنبات نامي بثماره ولكن يبقى الإنسان مشدوداً في هذا المثل إلى الصورة النهائية الواردة فيه ، فما فصل ربنا تعالى في هذا المثل بذكر لذات وبهجة وحسن ما يترتب على نزول الماء وإنبات النبات وإنما جاء

مباشرة إلى أنه هشيم تذروه الرياح حيث أصفر وأصبح حطاماً ثم زال وانتهى، وهذه هي الحياة الدنيا.

الناظر في القرآن الكريم يجد أن الله جل في علاه في كثير من الأمثلة شبه الحياة الدنيا بالماء النازل من السماء وكلنا يذكر قول الله عز وجل في سورة الكهف " واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً" . أعجبني كلام الإمام القرطبي أيضاً في تفسير سورة الكهف ، إذ ذكر أربعة وجوه في تشبيه الماء النازل من السماء بالحياة الدنيا، فقال: قالت الحكماء إنما شبه تعالى الدنيا بالماء ، لماذا شبه الله تعالى الدنيا بالماء؟

لأن الماء لا يستقر في موضع ، الماء يكون هنا تارة ثم يذهب هناك تارة ، الماء يكون في بلد، تغير المناخ اليوم أصبح ظاهراً ، البلاد التي كان المطر ينزل فيها كثيراً أصبح قليلاً وورد في الحديث بين حسن أو ضعيف ضعفاً يسيراً ما عام بأمطر من عام فالجميع الذي ينزل من السماء يتبخر ويصعد إلى السماء ثم ينزل لكن هذا الماء لا ينزل في محل واحد هذا الماء يتفاوت النزول فالماء لا يستقر في موضع فكذلك الدنيا لا تبقى على حال واحد لكل الناس، ، وهذا أمر مشاهد ، بعض الناس ترى من أغنى الأغنياء ثم ينمو إلى سمعك أنه أصبح من أفقر الفقراء ، وفلان فقير يصبح غنياً وهكذا ، فالدنيا شبهها الله تعالى بالماء لأن الماء أولاً لا يستقر في موضع واحد وإنما هو ينتقل من مكان لمكان فكذلك الحياة الدنيا.

الوجه الثاني في تشبيه الماء بالحياة الدنيا لأن الماء لا يستقيم على حاله، الماء لا يستقيم على حالة واحدة كذلك الدنيا، فالماء لا يبقى، وكذلك الدنيا لابد أن تفنى، فالموت مكتوب على

كل احد، فالحياة الدنيا شبه الله تعالى الحياة الدنيا وما يترتب على نزول الماء من الزرع فكذلك الدنيا بالنسبة لمن قدَّر الله لهم أن يأخذوا نصيبهم منها، فهي لا تبقى، لابد أن تزول، وهذا هو الوجه الثاني في تشبيه الله عز وجل الحياة الدنيا بالماء، الماء لا يقدر أحد ان يَدخله ولا يبتل به ، فكذلك الحياة الدنيا لا يَسلم أحدٌ من فتنتها وآفاتها، الماء ما أحد يتعرض له ويسلم منه ولابد أن يبتل وكذلك الحياة الدنيا من كان فيها فلابد أن تصيبه الآفات ولكن يبقى جِده واجتهاده وحرصه على أن يبتعد عنها، فلابد لكل أحد أن يبتل؛ والعاصم من عصمه الله سبحانه وتعالى، فالسعيد من رزق من هذه الحياة الكفاف، فلا هو غني غنىً يصده ويبعده عن دين الله عز وجل، ولا هو في ذل الحاجة، ويحتاج الناس، ولذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول كما في صحيح مسلم: {اللّهم اجعل رزق آل مُحَمَّد كفافاً}، فيكون الرزق كفافاً، لا تتعرض لذل الناس وحاجتهم ولا تطغى، قال الله تعالى : (وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ) الزخرف/ 33- 35؛ لولا أن يكون الناس كلهم كُفّار ويغتر المؤمنون بهذه الحياة الدنيا لجعلنا لمن يكفر بالله لبيوتهم سُقُفاً من فضة لأبوابهم وبيوتهم وأن تكون لهم الزخارف والبهارج، ولكن الله رحيم. افهم يا عبد الله أن الله قد يحجب عنك الدنيا لأنه رحيم بك، ولا يعطيك ما تريد لأن الله تعالى رحيم بك، لأن الانسان إن أصبح ذا مال يطغى، يصبح عنده طغيان، فالله رحيم بالمؤمنين، فمن رحمته بالمؤمنين أنه ادّخر لهم النعيم، والنعيم المدخر عند الله

هو نعيم مقيم كما قال الله عز وجل، وأما الدنيا نعيم ليس حقيقي، نعيم زائف، ونعيم ليس بدائم، وزخرف لا تجد له مَمْسَكاً، انظروا الى لذات الدنيا وشهواتها، أطول لذة أي لذّة؟

ما لذّات الدنيا؟

ما هي اللذات التي يلتذ بها الانسان في الحياة الدنيا؟

الطعام.

انظر الى مآله، كلما طاب الطعام كان مآله أقذر وأسوأ، كلما كان لذيذا كان البول أشد وأسوأ رائحة.

ماذا بقي؟

الجماع.

كم مدة الجماع؟

وماذا يترتب على الجماع من إنهاك وضعف.

النوم.

النوم وفاة وليس شهوة، وإنما من ضعف.

فالدنيا ليست فيها شهوات، انظر وتأمل من أي مكان تلتذ ومن أي مكان تتألم، تتألم من كل مكان ولا تلتذ إلا من أماكن محصورة، المكان الذي تلتذ منه أماكن معروفة ومحصورة ولكن

الشيء الذي تتألم منه كل بدنك يتألم، ولذا الحياة الدنيا لا يغتر بها إلا نسأل الله –عز وجل– العافية إلا المغرور، فهي متاع الغرور، والسعيد من جاهد وبذل وقدم الباقي على الفاني.

قلنا الله شبه الحياة الدنيا بالماء، قلنا السبب الأول لأن الماء لا يستقر في موضع، السبب الثاني أن الماء لا يبقى على حال واحدة، السبب الثالث أن الماء لا يقدر أحد أن يدخله ولا يبتل منه، فكل من كان في هذه الحياة الدنيا لابد أن يبتل بها لكن فرق بين بلل وبين إعصار يحرفه عن المسار، يأتيك إعصار فيحرفك عما تريد والطريق التي تتوجه إليها فتصبح في عمى وتصبح الدنيا تلعب بك وإعصار يتنقل بك كيفما شاء وأنت لا تدري لا تتمالك نفسك، لذا صاحب الشهوة كلما تماديت في الشهوة كلما ضعف السيطرة على النفس، كل ما تماديت في الشهوة ضعف السيطرة على النفس بخلاف الذي يبتل فقط بلل يسير والبلل اليسير يبقى عارفاً الاتجاه الذي يسير فيه وهو يسير في صراط مستقيم ويعلم أنه مسافر الى الله ولابد أن يصل بإذن الله تعالى ب: {والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا}، لابد أن يصل وان يقرع الباب فمن قرع الباب فُتح له ودخل جنة الله في طريقه وسيره اليه –سبحانه وتعالى–.

الوجه الرابع والأخير لما ذكر الامام القرطبي في مشابهة الحياة الدنيا الماء، الماء إذا كان بقدر كان نافعا منبتا، وإذا كان الماء كثيرا أو كان الماء في غير وقته كان ضاراً، النبي –صلى الله عليه وسلم– يقول: {ليست السَّنَةُ –وهو القحط– ليست السَّنَةُ ألّا تُمطروا، ولكن السَّنَةُ أن تمطروا ثم تمطروا ثم تمطروا ولا تنبت الارض شيئاً}، هذه السَّنَةُ.

الحديث: {ليسَتِ السَّنَةُ بأَنْ لا تُمْطَرُوا، ولَكِنِ السَّنَةُ أنْ تُمْطَرُوا وتُمْطَرُوا، ولا تُنْبِتُ الأرْضُ شيئًا}. الراوي: أبو هريرة | المحدث: مسلم | المصدر: صحيح مسلم الصفحة أو الرقم: 2904 | خلاصة حكم المحدث: [صحيح] | التخريج: أخرجه مسلم (2904).

انتبهوا، من ألاعيب الاستعمار في ديار المسلمين هذه الأيام أن قسمهم إلى قسمين، غنى شديد لأقوام أعدادهم قليلة ليس بيدهم حيلة ولا يستطيعوا أن ينصروا الأمة، والأعداد الكبيرة فقر مدقع لا يجدون لقمة الخبز؛ ففي الفقر مؤامرة وفي الغنى مؤامرة، والله الذي لا إله إلّا هو لو أن أهل مصر يشبعون من أكل الخبز لما جرى في العالم الإسلامي ما يجري اليوم، أشبع أهل مصر فقط، أهل مصر أشبعهم وانظر إلى حالهم، بل لا تنظر إلى حالهم أنظر إلى حال الأمة، من خلال أن أهل مصر فقط عندهم ما يأكلون؛ ولكن الماء إذا كثر لا يثمر ولا ينفع، الماء ، إذا كثر لا يكون نافعا ولا يكون منبتاً، وإذا جاوز المقدار كان مهلكاً، وكذلك الدنيا الكفاف منها ينفع وفضولها يضر ولا ينفع، الذي ينفع من الدنيا الكفاف، ولذا ثبت في صحيح مسلم ان النبي -ﷺ- قال: { قد أفلح من أسلَم ورُزِقَ كفافًا، وقَنَّعَه اللهُ بما آتاه }.

الحديث: {قد أفلح من أسلَم ورُزِقَ كفافًا، وقَنَّعَه اللهُ بما آتاه}.

الراوي: عبدالله بن عمرو | المحدث: الألباني | المصدر: السلسلة الصحيحة | الصفحة أو الرقم: 129 | خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح أو حسن | التخريج: أخرجه مسلم (1054).

لذا اختلف اهل العلم فيما بينهم وأُلِّف في هذا الباب مؤلفات وطُبع منها الكثير في المفاضلة بين الغني الشاكر والفقير الصابر.

أيهما أفضل الغني الشاكر أم الفقير الصابر؟

وقع كلام طويل ويحتاج الى محاضرة طويلة في هذا الباب، فالنبي -ﷺ- يقول: {نعم المال الصالح للرجل الصالح}، إذاً المال مُقيد بالرجل الصالح، بعضهم قال لا الفقير أحسن، قال لماذا الفقير أحسن؟

قال الغني الواجب عليه دفع الزكاة ومن لم يدفع الزكاة من الأغنياء يأثم ويعاقب عند الله -عز وجل-، والفقير ليس عليه واجباً أن يأخذ الزكاة.

مثلاً: جاءني غني بمال فأنا قلت له لا أريد مالك، هل الفقير يأثم؟ لا يأثم، ولذلك قالوا هو أحسن من الغني.

لذا أهل الفقر في المجتمع المسلم أهل عزة، بهم ينصر الله الأمة، الأمة تُنصر بالفقراء، والراجح في الترجيح بين الغني الشاكر والفقير الصابر أن كليهما على خير، والعبرة بالثمرة، فالله -جل في علاه- ذكر لنا في القرآن قصة أيوب، وهو مثل لمن احتاج إلى الصبر، وذكر لنا قصة سليمان الملك الذي حكم الإنس والجن وحكم الدنيا كلها، وقال الله تعالى في سورة (ص) عن سليمان وقال الله تعالى في سورة (ص) عن أيوب -عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام- قال الله عنهما: {نِعمَ العبدُ إنَّه أوّاب}، فالعبرة أن يكون العبد أوّاباً.

ماذا يعني أوابا؟

رجّاعاً.

لذا ورد في الحديث أن صلاة الأوّابين هي صلاة الضحى، وردت أحاديث ضعيفة ذكرها أبو حامد الغزالي في كتابه (إحياء علوم الدين) أن صلاة الأوابين اثنتا عشرة ركعة تُؤدى بين المغرب والعشاء وهي أحاديث ضعيفة لم تثبت عن رسول الله -ﷺ-، ومن أراد أن يتطوع بين المغرب والعشاء لا حرج لكن ليست هي صلاة الأوابين، وإنما صلاة الأوّابين هي صلاة الضحى.

نعم العبد إنه أوّاب: أي إنّه رَجَّاعٌ الى الله -سبحانه وتعالى-.

الإمام ابن القيم ذكر الحياة الدنيا في كتبه والإمام ابن القيم رحمه الله تعالى له كلمات بليغات بأسلوب فيه بلاغة ويأخذ القلب. اخترت لكم نقلين وبهما اختم درسي هذا حول الحياة الدنيا: النقل الأول من كتابه البديع الذي أنصح أن يُتدارس بين الإخوة، الإنسان اجتماعي بطبعه ويأتيه أُناس ويحتاج للناس، أنصح أن يكون كتاب الفوائد يُتذاكر به، كل ما جاءك أحد امسك كتاب الفوائد وابدأ بترتيب الكتاب، فوائد كتاب مليء بما يُعين على أن تستقيم على أمر الله سبحانه وتعالى، له كلمات بديعة وله قواعد، هو يُعطيك فوائد لكن تتضمن هذه القواعد الفوائد لذا أنا أنصح أن الإخوة في زياراتهم وجلوسهم مع بعضهم بعضاً يقرأون في كل مجلس خمس دقائق عشر دقائق تقرأون فائدة من هذا الكتاب.

يقول: ((لَا تتمّ الرَّغْبَة فِي الْآخِرَة إِلَّا بالزهد فِي الدُّنْيَا)).

مستحيل واحد راغب في الآخرة وقلبه متعلق في الدنيا، لكن يمكن أن يكون الإنسان راغبا في الآخرة والدنيا بين يديه لكن ليست في قلبه.

لذا قال العلماء الدنيا والآخرة كالمشرق والمغرب، فكلما قربت من المشرق ابتعدت عن المغرب وكلما قربت من المغرب ابتعدت عن المشرق فالدنيا والآخرة كالمشرق والمغرب كلما اقتربت من واحدة ابتعدت عن الأُخرى.

قال: ((لا تتم الرغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا ولا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بعد نَظَرَيْن صَحيحَيْن)).

لا يمكن لأحد أن يستقيم زُهده على وجه صحيح إلا أن تنظر إلى المسألة مِن نَظَرَيْن.

قال: ((نَظَرٌ في الدنيا وسرعة زوالها وفنائها واضمحلالها ونقصه وخِسَّتها وعدم المزاحمة عليها والحرص عليها وما في ذلك من الغُصص والنَّغص والأنكاد وآخر ذلك الزوال والانقطاع مع ما يعقُب من الحسرة والأسف، فطالبُها طالب الدنيا لا ينْفَك من همٍّ قبل حصولها وهمٍّ في حال الظفر بها وغمٍّ وحزنٍ بعد فواتها، فهذا أحد النَظَرَيْن)).

إذا أردت أن تُقبل على الآخرة وتزهد في الدنيا انظر إلى أن الدنيا كلها هموم وأن الدنيا لا تدوم لأحد وأن الدنيا تتقلب وأنت قبل التحصيل تصاب بِهَم وعند التحصيل تصاب بِهَم ولما يفوتك التحصيل بعد أن كانت في يديك أصابك همٌّ وحزن، فهذا النظر الأول لا تنساه.

قال: ((النظر الثاني في الآخرة وإقبالها ومجيئها لابد من ودوامها وبقائها وشرف ما فيها من الخيرات والمسرّات والتفاوت الذي بينه وبين ما ها هنا في الدنيا كما قال الله عز وجل: {والآخرة خير وأبقى}.)).

انتبه الآخرة، أنا في الدنيا في زوال الدنيا لابد أن تزول والآخرة خير وأبقى.

فيقول رحمه الله تعالى: ((فهي خيراتٌ كاملةٌ دائمة، الآخرة خيرات دائمةٌ باقية، الدنيا خيالاتٌ ناقصةٌ منقطعةٌ مضمحلة)).

الدنيا خيالات، اللذة التي نِلْتَها أمس من طعام أو شراب أو جماع أين هي؟ ذهبت خيالات خيالات منقطعة مضمحلَّة.

((فإذا تمَّ للعبد هذان النظران آثر ما يقتضي العقل إيثاره، وزَهِد فيما يقتضي الزهد فيه، فكل أحد في هذه الحياة مطبوع على ألّا يترك النفع العاجل واللذة الحاضرة إلى النفع الآجل واللذة الغائبة المنتظرة إلا إذا تبيَّن له فضل الآجل على العاجل)) .

قال بعض الصالحين: لو كانت الدنيا من ذهب والذهب فانٍ والآخرة من خَزَف والخَزَف باقٍ لَآثَرَ العاقل الخزف الباقي على الذهب الفاني، فَكيف والآخرة من ذهب والدنيا من خزف؟ الآخرة من ذهب والدنيا من خزف فالعاقل يُؤثِر الباقي على المضمحل الزائل الفاني.

قال : ((إلا إذا تبيَّن له فضل الآجل على العاجل وقَويت رغبته في الأعلى الأفضل، فإذا آثر الفاني الناقص كان ذلك إما لِعدم تبيُّن الفضل له وإما لِعدم رغبته في الأفضل، وكُل واحدٍ مِن الأمرَين يدل على ضعف الإيمان وضعف العقل)).

إذا كُنت تعتقد الآخرة ليست هي الباقية كفرت وإذا كُنت تعتقد أنّ الدنيا الفانية أحسن من الشيء الباقي الذي تنتظره أنت عقلك فيه شيء، فَسِرّ التعلق بالدنيا والزهد في الآخرة يعود إلى أمرين لا ثالث لهما إما ضعف الإيمان وإما ضعف العقل. واحد عنده إيمان واحد عنده عقل ويتعلق بالدنيا ويترك الآخرة؟ تعلّق خُذ من الدنيا نصيبك، لذا الله قال لنبيِّه:{ولا تنسى

نصيبك من الدنيا}.ما هي دلالة الآية؟ هو متعلق بالآخرة تعلقاً كلياً مُعرضاً عن الدنيا اعراضاً كُلياً، فمن كان متعلقا بالآخرة مُعرض عن الدنيا إعراضاً كلياً قال الله:{له لا تنسى نصيبك من الدنيا}.نحن حالنا اليوم يُقال لنا لا تنسى نصيبك من الآخرة لذا قال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم ماذا قال الله له؟ قال:{ولا تنسى نصيبك من الدنيا}.العجب أنّ واحداً يحتج بالتعلق بالدنيا بهذه الآية، عجب هذا فهم مغلوط. الله لما قال للنبي ﷺ {ولا تنسى نصيبك من الآخرة ما هو المعنى من الدنيا؟ المعنى أنّه معرضٌ عنها بالكلية لا يلتفت إليها أبداً ولِذا نبّهه الله تعالى بقوله:{ولا تنسى نصيبك من الدنيا}.

قال: ((فإن الراغب في الدنيا الحريص عليه المؤْثِرَ لها إما أن يُصدِّق أن ما هناك في الآخرة أشرف وأفضل وأبقى وإما أن لا يصدق فإن لم يُصدِّق بذلك كان عادماً للإيمان رأساً ليس له أدنى نصيب من الإيمان، وإن صدَّق بذلك ولم يُؤْثِره كان فاسد العقل سَيِّء الاختيار لنفسه))

يعتقد أن الآخرة أبقى وأفضل ويُؤثر الأدنى على الأعلى هذا سيء العقل.

قال: ((وهذا تقسيم حاصر ضروري)).

حاصر : محصور ما في شيء آخر.

قال: ((هذا تقسيم حاصر ضروري لا ينفك العبد من أحد القِسمَيْن منه. فإيثار الدنيا على الآخرة إما مِن فساد في الإيمان وإما من فساد في العقل وما أكثر ما يكون منهما ولهذا نَبَذَها ﷺ وراء ظهره هو وأصحابه وصرفوا عنها قلوبهم واطرحوها ولم يألفوها وهجروها ولم يميلوا إليها وعدُّوها سجناً لا جَنَّة)).

لذا ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال:(الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر).

أنا الآن أُريد أذكر ومضة حتى نفهم حديث: ألا يوجد في الدنيا مُنَعمُون مِن المؤمنين؟

نعم.

مِن الأنبياء والمؤمنين كما ذكرت عن سليمان داوود.

ألا يوجد أُناس أصحاب بُؤس وشقاء ومرض وابتلاء من الكفار؟

موجود.

الحديث معناه الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر قال أهل العلم لو جيءَ يوم القيامة بأنعم أهل الأرض من أهل الإيمان أكثر واحد من المؤمنين كان له نصيب كبير من هذه الدنيا، لو جِيء يوم القيامة بأنعم إنسان من المؤمنين فَغُمس في الجنة غمسة وسُئِل كيف وجدت الدنيا؟ سيقول سجن. الدنيا سجن المؤمن حتى لِمن كان ذا نعيم؟

نعم، حتى لو كان ذا نعيم.

لو جيء بِأبئس أهل الأرض مِن أهل الكفر أكثر واحد عُذِّب وابتلي وصابه الشقاء في هذه الحياة فَغُمِس في النار غَمسةً واحدة هذا أبئس إنسان في الدنيا فَغُمِس في النار غمسةً واحدة فَسُئِل كيف وجدت الدنيا؟

لَقال جنة.

ما البؤس الذي كان في الدنيا بالنسبة للعذاب الذي ينتظره يوم القيامة وهو أبئس أهل الخلق من الكفار لما يُغْمَس في النار غمسة واحدة فَيُسأل عنها فماذا سيقول؟

جنة كُنت في جنة.

وهذا من معاني قول النبي صلى الله عليه وسلم (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر).

قال : ((وعدُّوها سجناً لاجنة)).

المؤمن يعلم حقيقة أن الدنيا سجن. ولذا قال النبي ﷺ:(لو كانت الدنيا تسوى عند الله جناح بعوضة لما سقى منها كافراً شربة ماء).

لو عند الله الدنيا تسوى شيئاً ما سقى منها الكافر شربة ماء.

قال: ((فَزهِدوا فيها حقيقة الزهد ولو أرادوها لنالوا منها كل محبوب لوصلوا منها كل مرغوب، فقد عُرضِت عليه ﷺ مفاتيح كنوز الدنيا فَردَّها وفاضت على أصحابه فآثروا بها)).

لذا النبي ﷺ خاف علينا أن تُفتح علينا الدنيا.

ماذا يعني تفتح علينا الدنيا ؟

يعني الصحابة وهم فقراء ، أحسن من أنهم أغنياء.

قال : ولم يبعوا حظهم من الآخرة ، وعلِموا أنها معبر ، وممر ، لا دار مقام ومستقر ، وأنها دار عَبور لا دار سرور ، وأنها سحابة صيف تتقشع عن قليل ، وخيال طيف ، ما استتم الزيارة

حتى آذَن بالرحيل، قال النبي ﷺ فيما أخرجه أحمد والترمذي ، والحديث حسن. قال : «ما لي وللدنيا ؟ إنما أنا كراكب ، –قال :في ظل شجرة–». من القيلولة ، يعني من النوم.

ما لي وللدنيا ؟! إنما أنا كرجل نام في ظل شجرة ، ثم راح وتركها)).

هذه الدنيا ،الدنيا نومة في ظل شجرة ، هذه الحياة الدنيا.

وقال ﷺ : «ما الدنيا في الآخرة ؛ إلا كما يدخل أحدكم إصبعه في اليم ، فلينظر بماذا يرجع»

هذه الدنيا !

تدخل أصبعك في اليم.

والحديث في صحيح الإمام مسلم، ورفعه إلى النبي ﷺ.

ثم ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى الأمثلة كلها التي وردت في القرآن عن الحياة الدنيا ، ومنها الآية التي نحن بصددها.

كذلك أقرأ عليكم كلاماً له في طريق الهجرتين للإمام ابن القيم –وبه أختم درسي– يقول رحمه الله : ((فمن أعرض عن الله بالكلية أعرض الله عنه بالكلية، ومن أعرض الله عنه لزمه الشقاءُ والبؤس والبخس في أحواله وأعماله وقارنه سوءُ الحال وفساده في دينه ومآله، فإن الرب تعالى إذا أعرض عن جهة دارت بها النحوس وأظلمت أرجاؤها وانكسفت أنوارها وظهرت عليها وحشة الإعراض وصارت مأْوى للشياطين وهدفاً للشرور ومصباً للبلاءِ، فالمحروم كل المحروم من عرف طريقاً إليه ثم أَعرض عنها أَو وجد بارقة من حبه ثم سلبها لم ينفذ إلى ربه منه، خصوصاً

إذا مال بتلك الإرادة إلى شيء من اللذات، وانصرف بجملته إلى تحصيل الأَغراض والشهوات عاكفاً على ذلك في ليله ونهاره وغدوه ورواحه، هابطاً من الأَوج الأَعلى إلى الحضيض الأدنى، قد مضت عليه برهة من أَوقاته وكان همه الله وبغيته قربه ورضاه، وإيثاره على كلِّ ما سواه، على ذلك يصبح ويمسي، ويظل ويضحي، وكان اللَّه في تلك الحال وليَّه ، لأنَّه وليُّ من تولاه، وحبيب من أحبَّه ووالاه. فأصبحَ في سجن الهوى ثاويًا، وفي أسر العدو مقيمًا، وفي بئر المعصية ساقطًا، وفي أودية الحيرة والتفرقة هائمًا، معرضًا عن المطالب العالية إلى الأغراض الخسيسة الفانية. كان قلبه يجول حول العرش، فأصبحَ محبوسًا في أسفلِ الحُشِّ.

فأصبحَ كالبازي المنتَّفِ ريشُه ... يرى حسراتٍ كلَّما طارَ طائرُ

وقد كان دهرًا في الرياضِ منعَّمًا ... على كلِّ ما يهوى من الصيدِ قادرُ

إلى أن أصابته من الدهرِ نَكبةٌ ... إذا هو مقصوصُ الجناحين حاسِرُ

فيا من ذاقَ شيئًا من معرفة ربِّه ومحبته، ثُمَّ أعرضَ عنها، واستبدل بغيرها منها، يا عجبًا له بأي شيءٍ تعوَّضَ! وكيف قرَّ قرارُه، فما طلبَ الرجوعَ إلى أحبّته وما تعرَّض! وكيف اتخذَ سوى أحبّته سكنًا، وجعل قلبه لمن عاداه مولاه من أجله موطنًا! أم كيف طاوعه قلبه على الاصطبار، ووافقه على مساكنة الأغيار!

فيا معرضًا عن حياته الدائمة ونعيمه المقيم، و يا بائعًا سعادته العظمى بالعذاب الأليم. و يا مُسْخِطًا مَن حياتُه وراحتُه وفوزُه في رضاه، وطالبًا رضى مَن سعادتُه في إرضاءِ سواه. إنَّما هي لذَّةٌ فانية، وشهوة منقضية، تذهب لذَّاتها، وتبقى تبعاتها. فرحُ ساعةٍ لا شهر، وغمُّ سنة بل

دهر. طعامٌ لذيذ مسموم، أوَّلهُ لذَّة وآخره هلاك. فالعامل عليها والساعي في تحصيلها كدودة القزّ، يسدُّ على نفسه المذاهب، بما نسجَ عليها من المعاطب. فيندم حين لا تنفع الندامة، ويستقيل حين لا تُقبَل الاستقالة.

فطوبى لمن أقبل على اللَّه بكليته، وعكف عليه بإرادته ومحبته، فإنَّ اللَّه يُقبِل عليه بتوليه ومحبته وعطفه ورحمته. وإنَّ اللَّه سبحانه إذا أقبلَ على عبدٍ استنارت جهاتُه، وأشرقت ساحتُها ، وتنورت ظلماتُها، وظهرت عليه آثار إقباله من بهجة الجلال وآثار الجمال، وتوجَّه إليه أهلُ الملأ الأعلى بالمحبة والموالاة لأنَّهم تبع لمولاهم. فإذا أحب عبدًا أحبوه، وإذا والى وليًّا والَوه. "إذا أحبَّ اللَّه العبد نادى: يا جبريلُ إنِّي أحبُّ فلانًا فأحِبَّه، فينادي جبريل في السماء: إنَّ اللَّهَ يحب فلانًا فأحِبُّوه. فيحبه أهلُ السَّماءِ ثُمَّ يحبه أهلُ الأرضِ، فيوضع له القبول بينهم، ويجعل الله قلوب أوليائه تفد إليه بالود والمحبة والرحمة، وناهيك بمن يتوجه إليه مالك الملك ذو الجلال والإكرام بمحبته ويقبل عليه بأنواع كرامته، ويلحظ الملأُ الأعلى وأهل الأرض بالتبجيل والتكريم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاءُ والله ذو الفضل العظيم)).

هذا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

ذكره ابن القيم في كتابه الروح وهو مسند عن عبد الله ابن عباس ، لا من كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، فسر فيه المنامات ، كيف يقع المنام ؟

المؤمن إذا نام وهو الموتة الصغرى ، إذا نام وهو على وضوء ، خرج روحه من بدنه ، وسجدت تحت العرش.

لَما ينام ؛ يموت ، كما قال الله عز وجل في الزمر ، وتبقى الروح لها صلة بالبدن ، كصلة شعاع الشمس بالشمس ، فالروح لا تفارق بالكلية.

فيفسر ابن عباس المنامات بلقيا الأرواح ، الأرواح تلتقي ، فإذا التقت الأرواح ؛ فحينئذ يقع في المنام.

سؤال من أخت من غزة : انقطعنا من كل مقومات الحياة ، ونفذ الغاز لتحضير ما يلزم من طعام لأطفالي.هل يجوز أخذ انبوبة غاز من أحد البيوت المهدمة ، وإن بقي لنا عمر ؛ نعيدها ، بحول الله ؟

الجواب : نعم لكِ ذلك ، وكذلك الطعام والشراب ، الموجود بيوت من مات ، فلكم أن تستفيدوا منها ، وأن تأكلوها ، فلا حرج في ذلك.

سؤال آخر : هل لو استشهدنا قبل إرجاعها نؤثم ؟

الجواب: ما دامت النية قائمة على إرجاعها ؛ فأنتم مضطرون ، وهذا جائز للاضطرار ولا إثم عليكم ، فلو أن الله كتب لكم الوفاة وأرجو الله أن يحفظكم ، وأن يحفظ المسلمين في كل مكان ، فأنتم غير مؤاخذين للحاجة التي فيكم ، لذا قال أهل العلم:

الفقير إذا كان سبب موته الفقر ؛ فله أن يستلب ، وأن يأخذ حقه من الغني ، ولو بالقوة ، إذا وصل الحال إلى الهلاك.

والله تعالى أعلم.